الباب الثالث
فى العصر الأيوبى

obeikandl.com

obeikandl.com

الباب الثالث

فى العصر الأيوبى

الفصل الأول: الإسكندرية فى عصر صلاح الدين حربيًا وعلميًا وعمرانيًا

- محاصرة صلاح الدين داخل الإسكندرية.
- داعية شيعى فى الإسكندرية.
- هزيمة أسطول صقلية على شواطئ الإسكندرية.
- زيارة صلاح الدين الأولى للإسكندرية: عنايته بالأسطول وترميم أسوار المدينة.
- الأعمدة الأثرية تلقى فى البحر لحماية الميناء الشرقى.
- صلاح الدين وأولاده يتلقون العلم على الحافظ السلفى.
- زيارة صلاح الدين الثانية للإسكندرية وأخذه العلم عن الفقيه الطاهر بن عوف.
- صلاح الدين والطاهر بن عوف.
- منشآت صلاح الدين فى الإسكندرية.
- صلاح الدين يبنى مسجدًا جديدًا فى الإسكندرية.
- كثرة المساجد فى المدينة فى أقوال الرحالة.
- رعاية صلاح الدين للوافدين من المغاربة.

الفصل الثانى: تجارة الإسكندرية الداخلية والخارجية فى عهد صلاح الدين.

الفصل الثالث: الإسكندرية فى عهود خلفاء صلاح الدين من ملوك الدولة الأيوبية.

١ – فى عهد العزيز عثمان.

٢ – فى عهد الملك العادل أبى بكر.

٣ – فى عهد الملك الكامل محمد.

obeikandl.com

٤ – فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب.

٥ – أمراء البيت الأيوبى والإسكندرية.

الفصل الرابع: الرحالة والمؤرخون الذين زاروا الإسكندرية فى العصر الأيوبى.

١، ٢ – بنيامين التطيلى وابن جبير الأندلسى.

٣ – المؤرخ أبو شامة.

٤ – الرحالة أبو الحسن على بن أبى بكر الهروى.

٥ – الرحالة عبد اللطيف البغدادى.

٦ – المؤرخ عثمان بن إبراهيم النابلسى.

٧ – المؤرخ سبط ابن الجوزى.

obeikandl.com

الفصل الأول
الإسكندرية فى عصر صلاح الدين
حربيًا وعلميًا وعمرانيًا

يرتبط تاريخ مدينة الإسكندرية ارتباطًا وثيقًا بالحوادث التى أدت إلى سقوط الدولة الفاطمية وقيام دولة صلاح الدين فى مصر، ففى منتصف القرن السادس الهجرى (١٢ م) تسابقت جيوش نور الدين محمود بن زنكى وجيوش الصليبيين فى الشام إلى مصر تريد أن تنتهز فرصة انحلال الدولة الفاطمية وضعفها وتستولى على تراث ملكها فى مصر.

١ - محاصرة صلاح الدين داخل الإسكندرية:

وكان يقود جيوش نور الدين أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقد وفدت هذه الجيوش إلى مصر ثلاث مرات، وقد لعبت الإسكندرية دورًا خطيرًا هامًا فى أحداث الغزوة الثانية.

ففى سنة ٥٦٢ هـ أعد أسد الدين شيركوه جيشًا كبيرًا وخرج به من الشام قاصدًا مصر بعد أن شاهد أثناء حملته الأولى من ضعفها ما أغراه وما أخافه على مصيرها إن هى وقعت فى أيدى الفرنج.

وقد كتم أسد الدين خبر حملته الثانية وهدفها، ولكن عمورى ملك بيت المقدس علم بنبئها، فأرسل إلى شاور يعلمه بتحرك أسد الدين نحو مصر، فطلب شاور منه إعادة النجدة، فرحب عمورى بالدعوة واستجاب لها وأسرع بجيشه نحو مصر فوصلها قبل أسد الدين، وخرج شاور للقائه عند بلبيس، واجتمع الجيشان - جيش عمورى وجيش شاور - يترقبان وصول أسد الدين.

وعلم أسد الدين بموقع أعدائه، فاحتال واتجه جنوبى الفسطاط، وعبر إلى البر الغربى، فعبر شاور بجيشه وجيش الفرنج وراءه، واتجه أسد الدين إلى الجيزة فعسكر بها خمسين يوماً، واستمال إليه بعض القبائل العربية المقيمة هناك، وبدأ يدرك خطورة موقفه، فإن الطريق بينه وبين الشام ومولاه نور الدين قد انقطعت بعد عبوره النيل إلى الضفة الغربية، ولهذا بدأ يلتمس السبل للخروج من هذا المأزق الحرج، فأرسل أولا إلى شاور يعرض عليه أن يتحالفا معًا،

منتهزين وجود عمورى بجيشه الكبير فى مصر، فينقضا عليه ويتخلصا منه، وبذلك يسهل على المسلمين القضاء نهائيًا على بقايًا قوى الصليبيين فى الشام، وقال أسد الدين مخاطبًا شاور فى رسالته إليه:

«وما أؤمل منك إلا نصر الإسلام فقط، وهو أن العدو وقد حصل بهذه البلاد، والنجدة عنه بعيدة، وخلاصه عسر، وأريد أن نجتمع أنا وأنت عليه، وننتهز هذه الفرصة التى قد أمكنت، والغنيمة التى قد كتبت، فنستأصل شأفته، ونخمد ثائرته، وما أظن أنه يعود يتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبدًا»

ولكن شاور كان يخشى بأس أسد الدين أكثر من خشيته بأس الفرنج، فلم يستجب لنداء أسد الدين، بل لقد أمر بقتل رسوله، وأطلع عمورى على العرض الذى تقدم به أسد الدين.

عند ذلك أدرك أسد الدين أن لابد له - وقد انقطعت السبل بينه وبين مركز إمداداته فى الشام - أن يستعين برجال وإمدادات من مصر، فبدأ بمكاتبة أهل الإسكندرية يستنجد بهم على شاور «لأجل إدخاله الفرنج إلى دار الإسلام وتضييعه أموال بيت المسلمين فيهم» ووجدت هذه الدعوة أذنا صاغية، واستجاب السكندريون له، فقد كانوا فى جملتهم سنة مالكية، وكانوا يكرهون المذهب الشيعى - مذهب الدولة الرسمى - ويكرهون شاور لاستعانته بالصليبيين أعداء الوطن والدين، وأمرّوا عليهم نجم الدين بن مصال وهو ابن أحد الوزراء السابقين،وكان قد لجأ إلى الإسكندرية مستخفيًا، فظهر فى هذه الفتنة.

ويروى أبو شامة فى كتابه «الروضتين» أخبار المعونة الحربية التى قدمها ابن مصال لأسد الدين نقلا عن الرسول الذى كان واسطة الاتصال بين الرجلين، ويدعى الشريف الإدريسى، قال أبو شامة:

«حدثنى الشريف الإدريسى - نزيل حلب - قال: كنت بالإسكندرية يومئذ، فكتب معى ابن مصال كتابًا إلى أسد الدين، وقال لى قل له أنى أخبرك أن السلاح واصل - وكان قد أنفذ لأسد الدين خزانة من السلاح - قال: فسبقتها بيومين، وحضرت بين يدى أسد الدين، وأعطيته الكتب،وشافهته برسالة ابن مصال فى معنى السلاح والآلات، ثم وصلت الخزانة بعد يومين مع ابن أخت الفقيه ابن عوف».

وتقدم أسد الدين بجيشه إلى الصعيد يجمع الأموال للاستعانة بها، فتبعته جيوش شاور وعمورى، والتحم الفريقان فى معركة فاصلة عند قرية البابين فى مديرية المنيا، وانتصر أسد الدين، وولت عساكر الأفرنج والمصريين الأدبار، وكاد مرى يؤسر.وعاد أسد الدين فاتجه

نحو الشمال، وقصد مدينة الإسكندرية «فدخلها، ونزل القصر، وجعل فيه محبس الفرنج الذين أسرهم، وبادر القاضى الرشيد ابن الزبير متولى ديوان المدينة، فقدم إلى أسد الدين الأموال والأسلحة». ولم يقم أسد الدين فى الإسكندرية طويلاً، فقد خشى أن يأتى شاور بجيوشه لمحاصرته فيها، فأمر ابن أخيه صلاح الدين بالبقاء فى الإسكندرية ومعه فريق من الجند «ومن به مرض أو جراح أو ضعف»، واستحلف له وجوه الإسكندرية وأوصاهم به خيرًا، ورحل عائدا إلى الصعيد.

وتحقق ما توقعه أسد الدين، فسار شاور بجيشه نحو الإسكندرية، وحاصرها ثلاثة أشهر، وضيق على أهلها، وقاتلهم أعنف قتال، ولكن الأهالى صدقوا القتال، وبذلوا كل ما يملكون من قوة ومال لنصرة صلاح الدين وتأييده، وقتل منهم جماعة كبيرة وعلم أسد الدين بما يعانيه ابن أخيه وأهالى الإسكندرية من ضيق، فأسرع بالعودة شمالاً يريد الاستيلاء على القاهرة، فاضطر شاور أن يفك الحصار عن المدينة ودارت مفاوضات الصلح بين الفريقين، وتم الاتفاق على أن تجلو جيوش أسد الدين وعمورى جميعًا عن مصر على أن يتكفل شاور بأن يحمل إلى أسد الدين جميع ما غرمه فى هذه الحملة، وأن يدفع للفرنج ثلاثين ألف دينار، وطلب صلاح الدين من عمورى أن يقدم له سفنًا تحمل الضعفاء من أصحابه، فأنفذ له عدة مراكب.

وكان صلاح الدين حفاظًا للجميل، فلم ينس ما قدمه أهل الإسكندرية له من معونة، وما قاموا به من تضحيات لنصرته، فاستحلف شاور أن لا يتعرض لأحد من أهل الإسكندرية بسوء، ومع ذلك فقد حنث شاور بيمينه - كعادته - فقبض على ابن مصال والرشيد ابن الزبير وجماعة ممن تعاونوا مع صلاح الدين، وعلم صلاح الدين بما حدث، فاجتمع بملك الفرنج، وشكا له شاور ونقضه للإيمان التى أخذها على نفسه، فأنكر عمورى ذلك، وألزم شاور يميناً أخرى أن لا يتعرض لأهل الإسكندرية ممن ساعدوا أسد الدين وصلاح الدين، يقول صاحب الروضتين:

«ولما شاهد من التجأ إلى الأسد والصلاح فساد تلك الأحوال خافوا من شاور، فأخذوا فى الرحيل إلى الشام، واتصل ذلك بشاور، فخرج بنفسه وجمع جميع من عزم على الرحلة إلى الشام، وحلف لهم على الإحسان إليهم وحماية أنفسهم وأموالهم، فمنهم من سكن إلى إيمانه: ومنهم من لم يسكن ورحل».

لم يكن غريبًا إذن أن يكون أهل الإسكندرية أول من يرحب بالقضاء على الدولة الفاطمية بعد أن اتخذ صلاح الدين لهذا الإجراء عدته، والمعروف المتداول فى كل المراجع التاريخية أن الفسطاط كانت أول مدينة قطعت فيها الخطبة للعاضد آخر خلفاء الفاطميين، وأقيمت للمستضئ بنور الله العباسى، وذلك فى الجمعة الأولى من المحرم سنة ٥٦٧ هـ، ثم أقيمت بعد ذلك فى

القاهرة فى الجمعة التالية، ولكن صاحب الروضتين ينقل عن العماد الأصفهانى أن الخطبة أقيمت للخليفة العباسى فى الإسكندرية أولاً، يقول أبو شامة نقلاً عن العماد:

«قال: ووصل الخبر بأن الخطبة قامت فى الإسكندرية يوم الجمعة سابع شهر رمضان، وفى مصر والقاهرة يوم الجمعة ثامن عشرى رمضان لمولانا الإمام المستضىء بنور الله وإقامة شعار بنى العباس بها».

٢ – الكشف عن داعية شيعى فى الإسكندرية بعد استقلال صلاح الدين بمصر:

وبعد القضاء على الدولة الفاطمية واستقلال صلاح الدين بحكم مصر بقليل كشف فى الإسكندرية عن داعية خطير يسمى قديد القفاص يعمل على نشر المذهب الشيعى ويدعو لإعادة الدولة الفاطمية، فقبض عليه وقتل، روى خبر هذا الداعية القاضى الفاضل فى الخطاب الذى كتبه باسم صلاح الدين إلى نور الدين يروى له فيه الأحداث التى جرت فى مصر إلى أن تم القضاء على الدولة الفاطمية، قال:

«ومما يطرف المولى به أن ثغر الإسكندرية – على عموم مذهب السنة به – اطلع البحث أن فيه داعية خبيثًا أمره، محتقرًا شخصه، عظيما كفره، يسمى قديد القفاص، وأن المذكور مع خموله فى الديار المصرية، قد فشت فى الشام دعوته وطبقت عقول أهل مصر فتنته وأن أرباب المعايش فيه يحملون إليه جزءًا من كسبهم، والنسوان يبعثن إليه شطرًا وافيًا من أموالهن، ووجدت فى منزله بالإسكندرية عند القبض والهجوم عليه كتب مجردة فيها خلع العذار، وصريح الكفر الذى ما عنه اعتذار، ورقاع بخطاب بها، فيها ما تقشعر منه الجلود وبالجملة فقد كفى الإسلام أمره، وحاق به مكره وصرعه كفره».

٣ – هزيمة أسطول صقلية على شواطئ الإسكندرية:

وفى الإسكندرية قابل صلاح الدين خطرًا جديدًا فى سنة ٥٦٩ هـ، أى بعد سنتين من القضاء على الدولة الفاطمية واستقلاله بمصر، وذلك أن أعوان الدولة البائدة من جند وأتباع راحوا يدبرون مؤامرة خطيرة للقضاء على صلاح الدين وإعادة الدولة الفاطمية،وكانت المؤامرة تهدف إلى الاستعانة بكل أنصار الفاطميين وأعداء صلاح الدين فى الداخل والخارج، فانضم إليها حاشية القصر،ودعاة الدولة، وعامة الإسماعيلية، والجند من السودان، والأرمن. وأفراد من أسر الوزراء الفاطميين السابقين من آل رزيك وآل شاور، ووضعت الخطة على أن يستعين هؤلاء بسنان صاحب الحشيشية فى الشام، وبالفرنج فى الشام وفى جزيرة صقلية، واشترك فى

المؤامرة الشاعر المغامر عمارة اليمنى، وعهد إليه أن يقوم بإغراء توارن شاه أخى صلاح الدين الأكبر بالخروج بحملة إلى اليمن لفتحها وإقامة ملك له فيها، وكانت الخطة التى وضعها المتآمرون تتلخص فى الخطوات الآتية:

١ – أن يخرج تورانشاه بحملته إلى اليمن فيصحب معه نحو نصف الجيش ونضعف بذلك القوة التى تبقى مع صلاح الدين فى مصر، يقول ابن الأثير: «وقال لهم عمارة: وأنا قد أبعدت أخاه إلى اليمن خوفًا أن يسد مسده وتجتمع الكلمة عليه».

٢ – تأتى أساطيل الفرنج من الشام وصقلية إلى مدينة الإسكندرية فإن خرج صلاح الدين بنفسه للقائهم ثار المتآمرون فى القاهرة وملكوا البلد وأعادوا الدولة الفاطمية، وتركوا للفرنج مهمة القضاء عليه، وإن أقام صلاح الدين فى القاهرة وأرسل جيشه لمقاتلة الفرنج ثار به المتآمرون وألقوا القبض عليه.

وكان صلاح الدين مجدود الطالع، فقد قدر له أن يكشف أخبار المؤامرة، نقلها إليه رجل من ثقاته هو الواعظ زين الدين بن نجا، وكان ملك بيت المقدس قد أرسل إلى صلاح الدين رسولاً بهدية ورسالة فى الظاهر، ولكنه كان مكلفًا بالاتصال سرًا بالمتآمرين: يقول ابن الأثير: «فأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجلية الحال، فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق إليه من النصارى وداخله، فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته».

عند ذلك أمر صلاح الدين بالقبض على كل المتآمرين، واستفتى الفقهاء والعلماء فى أمرهم فأفتوا بقتلهم جزاء لهم على خيانتهم لوطنهم ودينهم، فقتلوا وصلبوا على أبواب القاهرة، وكان من بينهم الشاعر عمارة.

فشل إذن الشق الداخلى من المؤامرة، وعلم بفشله فرنج الشام، فأحجموا ولم يقدموا، أما صاحب صقلية غليالم الثانى (وليم الثانى)، فلم تكن قد وصلته أخبار القبض على المتآمرين، فأرسل أسطوله الضخم لمهاجمة الإسكندرية، وكان صاحب القسطنطينية يسعى فى ذلك الوقت لكسب ود صلاح الدين، فأرسل إليه ينبئه بأخبار هذا الأسطول، يؤيد هذا قول صلاح الدين نفسه فى خطاب أرسله إلى الخليفة ببغداد:

«.. إلى أن وصلنا رسله (أى رسل صاحب القسطنطينية) فى جمعة واحدة نوبتين بكتابين، كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح، وإلقاء السلاح، والانتقال من معاداة إلى مهاداة، ومن مفاضحة إلى مناصحة، حتى إنه أنذر بصاحب صقلية وأساطيله التى تردد ذكرها، وعساكره التى لم يخف أمرها».

وأشار صلاح الدين فى نفس الخطاب إلى الاستعدادات الضخمة التى كان يتخذها صاحب صقلية لإعداد الأسطول الذى سيهاجم به الإسكندرية، قال:

«ومن هؤلاء الكفار: هذا صاحب صقلية، كان حين علم بأن صاحب الشام وصاحب القسطنطينية قد اجتمعا فى نوبة دمياط فغلبا وقسرا، وهزما وكسرا، أراد أن يظهر قوته المستقلة، فجهز أسطولاً استوعب فيه ماله وزمانه، فله الآن خمس سنين يكثر عدته، وينتخب عدته، إلى أن وصل منه فى السنة الحالية إلى الإسكندرية أمر رائع وخطب هائل..».

وصل الأسطول إلى شواطئ الإسكندرية ظهر يوم الأحد السادس عشر من ذى الحجة سنة ٥٦٩ هـ (٢٨ يوليو ١١٧٤م) وكان يتكون من:

- مائتى شينى لحمل الجنود من فرسان ورجال، وسعة كل شينى مائة وخمسون راجلا.
- ست وثلاثون طريدة لحمل الخيل، وكانت عدة الخيل ألفًا وخمسمائة رأس.
- ست مراكب كبار تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار والمنجنيقات والدبابات والحجارة وغيرها.
- أربعون حمالة برسم الأزواد والرجال «وفيها من الراجل المتفرق وغلمان الخيالة، وصناع المراكب وأبراج الزحف ودباباته، والمنجنيقية ما يتم خمسين ألف رجل.

فكانت عدة جنود الحملة خمسين ألفًا، منهم ثلاثون ألفا من الرجالة والفرسان، وكان عدد الفرسان ألفا وخمسمائة منها خمسمائة من التركبلى، وكان القائد العام للحملة ابن عم غليالم صاحب صقلية.

وكان صلاح الدين عند ذلك معسكرًا عند مدينة فاقوس، فأرسل إليه والى الإسكندرية بواسطة الحمام الزاجل رسائل ينبئه فيها بوصول أسطول صاحب صقلية.

واستطاع الفرنج النزول ببر الإسكندرية فيما يلى المنار فى اليوم التالى لوصولهم، فخرج أهالى الإسكندرية بسلاحهم وعدتهم لمقابلتهم، وجرت بين الفريقين مناوشات، واستطاع السكندريون أن يسبقوا إلى السفن الإسلامية الراسية فى الميناء، وأن يخربوها ويغرقوها حتى لا يمكنوا العدو من الاستيلاء عليها. «ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم». واتصل القتال إلى المساء، فضرب الصقليون خيامهم بالبر خارج أسوار المدينة وكانت عدتها ثلاثمائة خيمة.

وفى صبيحة اليوم الثانى عاود الفرنج القتال، وتقدموا بدباباتهم ومنجنيقاتهم حتى حاذوا بها الأسوار، وكانت المجانيق تضرب بحجارة استصحبوها معهم من صقلية،وكان الأهالى قد احتموا داخل الأسوار يدافعون عن المدينة من ورائها، وفى يوم الأربعاء – وهو اليوم الثالث من أيام القتال خرج أهالى الإسكندرية فجأة وفى جموع ضخمة من أسوار المدينة، وهجموا على العدو هجمة رجل واحد، ووصلوا إلى الدبابات فأحرقوها، واستمر القتال إلى آخر النهار، وكتب النصر للأهالى، وعادوا فى الليل إلى مدينتهم وهم – كما يقول ابن الأثير – «فرحون مستبشرون بما رأوا من تباشير الظفر وقوتهم، وفشل الفرنج وفتور حربهم، وكثرة القتل والجراح فى رجالتهم».

وكانت الأخبار قد وصلت إلى صلاح الدين فأرسل فى الحال رسولا من قبله إلى الإسكندرية يبشرهم بقرب وصوله، وأرسل طائفة أخرى من عسكره إلى ثغر دمياط للدفاع عنها، ووصل رسوله إلى الإسكندرية عصر يوم الأربعاء والناس قد رجعوا من القتال فنادى فى المدينة بقرب وصول صلاح الدين وجيشه، فأشعل هذا النداء حماس الأهالى، فأسرعوا بترك المدينة وخرجوا لاستئناف القتال، ويتضح من أقوال المؤرخين أن صلاح الدين كان قد أصبح فى نظر السكندريين بطلا أسطوريا وزعيما محبوبًا،ولا عجب فى هذا فقد سبق أن التفوا حوله منذ سبع سنوات، وأظهر من آيات البطولة ما أثار إعجابهم عندما صمد لحصار العدو لمدة شهور ثلاثة، وقد عقدت بينه وبينهم منذ ذلك الحين أواصر المحبة والولاء، لهذا لم يكادوا يسمعون بقرب وصول قائدهم وزعيمهم حتى تناسوا تعب القتال طول النهار واندفعوا يستأنفون الجهاد بروح الفدائى المستميت، يقول ابن الأثير: «فلما سمع الناس ذلك عادوا إلى القتال وقد زال ما بهم من تعب وألم الجراح، وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه، فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله».

أما الفرنج فإنهم لم يكادوا يسمعون بقرب وصول صلاح الدين حتى تملكهم الرعب، واستولى عليهم الفزع، وفترت همتهم، وضعف حماسهم للقتال، فهاجمهم السكندريون عند اختلاط الظلام ووصلوا إلى خيامهم، واستولوا على ما فيها، وقضوا على من بها من الجند، ولم ينج منهم إلا من استطاع أن ينزع ملابسه ويلقى بنفسه فى الماء،وتتبعهم أهالى الإسكندرية فى البحر فاستولوا على عدد من سفنهم فخسفوها وأتلفوها، وولت بقية السفن هاربة، واحتمى ثلاثمائة فارس منهم فى رأس تل «فانقض عليهم الأهالى وأخذوا خيولهم وقتلوا منهم البعض وأسروا البعض الآخر».

وانتهت المعركة بانتصار أهل الإسكندرية انتصارًا رائعا حاسمًا «وأخذوا من المتاع والأسلحة ما لا يملك مثله»، وأقلع الأسطول عن الثغر مهزوما مدحورا يوم الخميس أول المحرم سنة ٥٧٠ هـ.

٤ – زيارة صلاح الدين الأولى للإسكندرية: عنايته بالأسطول وترميم أسوار المدينة:

مما سبق نرى أن الخطر كان يهدد صلاح الدين فى مدينة الإسكندرية مرة وهو يسعى للملك مصر، ومرة ثانية وهو يسعى للتمكين لهذا الملك، فلا عجب إذن أن رأيناه يعنى بهذه المدينة عناية خاصة، فيصدر أوامره بالعناية بأسوارها وترميم حصونها وأبراجها وقلاعها، ولما فرغ من القضاء على الصعوبات التى اعترضته جميعًا سافر فى شعبان سنة ٥٧٢ هـ إلى الإسكندرية ليشرف بنفسه على هذه الإصلاحات والتحسينات، قال ابن واصل فى كتاب «مفرج الكروب»: «ثم سار (صلاح الدين) فى الثالث والعشرين من شعبان إلى الإسكندرية، ليشاهدها ويرتب قواعدها، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها».

ورأى صلاح الدين بثاقب فكره أن شواطئ مصر لا يمكن أن يحميها إلا أسطول قوى، وانتهز فرصة زيارته للإسكندرية وزار أسطولها فوجده خرباً، قد نالت منه السنون والأحداث والاضطرابات التى سادت مصر فى العصر الفاطمى المتأخر، فأمر بتعميره وإنشاء سفن جديدة لتقويته وأفرد له ديوانا خاصًا أسماه «ديوان الأسطول»، ذكر هذا المؤرخ ابن أبى طى قال:

«ولما نوى السلطان المقام بالإسكندرية ليصوم فيها رأى أنه لا يخلى نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد إلى بلاد الكفار والجهاد فى المشركين، فرأى الأسطول وقد أغلقت سفنه وتغيرت آلاته بتعمير الأسطول وجمع له من الأخشاب والصناع أشياء كثيرة، ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات، فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الأسطول إليه، وشحنه بالرجال وولى فيه أحد أصحابه، وأفرد له إقطاعًا مخصوصًا وديوانًا مفردًا، وكتب إلى سائر البلاد يقول: القول قول صاحب الأسطول، وأن لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه، وأمر صاحب الأسطول أن لا يبارح البحر،ويغزى إلى الجزائر».

وبلغ من عناية صلاح الدين بالأسطول أن عهد بديوانه إلى أخيه الملك العادل فى سنة ٥٨٧ هـ، وخصص للصرف عليه أبوابًا كثيرة من إيرادات الدولة.

٥ – الأعمدة الأثرية تلقى فى البحر لحماية الميناء الشرقى:

ويبدو أن صلاح الدين لم يعن بإنشاء دار الصناعة وتعمير الأسطول فقط، وإنما اتخذ وسائل أخرى لتحصين الثغر حماية له من غارات الأعداء، فقد ذكر المقريزى فى خططه عند كلامه عن عمود السوارى أنه «كان حوله أربعمائة عمود، كسرها قراجا وإلى الإسكندرية فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، ورماها بشاطئ البحر ليوعر على العدو سلوكه إذا قدموا».

وقد زار الرحالة عبد اللطيف البغدادى مدينة الإسكندرية فى عهد الملك العادل أخى صلاح الدين. وشاهد هذه العمد المكسرة عند شاطئ البحر، وانتقد ما فعله قراجا من كسره هذه الأعمدة، قال:

«ثم إنى رأيت بشاطئ البحر مما يلى سور المدينة أكثر من أربعمائة عمود مكسرة أنصافًا وأثلاثًا، حجرها من جنس حجر عمود السوارى على الثلث منه أو الربع. وزعم أهل الإسكندرية قاطبة أنها كانت منتصبة حول عمود السوارى وأن بعض ولاة الإسكندرية واسمه قراجا كان واليًا عن يوسف بن أيوب، فرأى هدم هذه السوارى وتكسيرها وألقاها بشاطئ البحر، زعم أن ذلك يكسر سورة الموج عن سور المدينة أو أن يمنع مراكب العدو أن تستند إليه، وهذا من عبث الولدان ومن فعل من لا يفرق بين المصلحة والمفسدة».

٦ – صلاح الدين وأولاده وكبار رجال دولته يتلقون العلم على الحافظ السلفى:

ولم يقصد صلاح الدين بهذه الزيارة أن يشرف على تقوية الأسوار والحصون وتعمير الأسطول فحسب، وإنما قصد أيضًا أن يزور عالم الإسكندرية ومحدثها الأكبر وقتذاك أبا الطاهر أحمد بن محمد السلفى، فقد كان هذا العالم الفذ استقر فى مدينة الإسكندرية منذ سنة ٥١١ هـ يدرس ويحدث، وأصبحت له مدرسة وتلاميذ، وطبقت شهرته الآفاق. فلما اعتزم صلاح الدين زيارة الإسكندرية فى تلك السنة كان من أهم أغراضه التردد على هذا العالم والأخذ عنه. وبهذا صحب ولديه الأفضل عليا والعزيز عثمان، ليشتركا فى الإفادة من علم السلفى. فلما استقر بالإسكندرية كان يتردد مع ولديه وقواد جيشه ورجال دولته على هذا العالم ثلاثة أيام فى الأسبوع.

٧ – زيارة صلاح الدين الثانية للإسكندرية وأخذه العلم عن الفقيه الطاهر ابن عوف:

وظل صلاح الدين يعنى بثغر الإسكندرية حربيًا وعلميًا، وعاد إلى زيارتهما فى سنة ٥٧٧ هـ، وخيم عند السوارى، وشاهد الأسوار التى جددها والعمارات التى مهدها، وأمر بالإتمام والاهتمام، ثم رأى أن يغتنم حياة فقيه آخر هو كبير علماء الإسكندرية ذلك الحين أبو الطاهر ابن عوف، فحضر عنده مرارًا مستصحبًا كالعادة أولاده وكبار رجال دولته، وسمعوا عليه جميعًا موطأ مالك بروايته عن أستاذه الطرطوشى.

وروى خبر هذه الزيارة وهذا السماع العماد الأصفهانى - كاتب إنشاء صلاح الدين - فقد كان مصاحبًا له فيهما، قال:

Obeikandl.com

«وتوجه السلطان بعد شهر رمضان (٥٧٧ هـ) إلى الإسكندرية على طريق البحيرة، وخيم عند السوارى، وشاهد الأسوار التى جددها والعمارات التى مهدها، وأمر بالإتمام والاهتمام، وقال السلطان»:

«نغتنم حياة الشيخ الإمام أبى طاهر بن عوف، فحضرنا عنده، وسمعنا عليه موطأ مالك - رضى الله عنه - بروايته عن الطرطوشى - فى العشر الأخيرة من شوال، وتم له ولأولاده ولنا به السماع».

واعتقد الجميع أن صلاح الدين قد حصل خيرًا كثيرًا بتتلمذه على ابن عوف وسماعه منه، فقد أرسل القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى رسالة جميلة بليغة إلى صلاح الدين يهنئه فيها بهذا السماع، ويقارن فيها بين رحلة صلاح الدين هذه مع ولديه لسماع الموطأ على ابن عوف، ورحلة هارون الرشيد مع ولديه الأمين والمأمون لسماع نفس الكتاب على مؤلفه الإمام مالك (ونص الرسالة فى كتاب الروضتين لأبى شامه).

٨ - صلاح الدين والطاهر ابن عوف:

وأسرة بنى عوف كانت إحدى الأسر الكبيرة فى مدينة الإسكندرية خلال القرن السادس الهجرى، وتتمتع بثروة ضخمة ومركز اجتماعى مرموق، وبرز من أفرادها عدد كبير من الرجال شاركوا فى الأحداث السياسية والحياة العلمية فى المدينة، وقد مر بنا أن ابن أخت الفقيه ابن عوف هو الذى حمل خزائن الأسلحة من ابن مصال إلى أسد الدين شيركوه وقد برز من أفراد هذه الأسرة عدد كبير من العلماء الأفذاذ كان على رأسهم الفقيه أبو الطاهر، ويبدو أن علاقات الود والصداقة قد عقدت بين رجال هذه الأسرة - وفى مقدمتهم الفقيه أبى الطاهر - وبين صلاح الدين منذ أيام المحنة التى قاسى شدائدها عندما حاصره الفرنجة فى مدينة الإسكندرية.

وكان صلاح الدين يستجيب لرأى ابن عوف ومشورته، فقد أسرع بتلبية رغبته - أثناء هذه الزيارة - عندما أشار عليه بإعادة ضريبة الصادر، وهى ضريبة كانت تفرض على تجارة الفرنج الصادرة من الإسكندرية، وتوزع حصيلتها على فقهاء الثغر وعلمائه، قال ابن فرحون فى كتابه «الديباج المذهب»:

«وقيل إنه (أى ابن عوف) كان السبب فى تجديد الصادر بثغر الإسكندرية، وهو شىء وظفه السلطان على تجار النصارى إذا صدروا من الإسكندرية، زائدًا على

العشر، رتبه لفقهاء الثغر، دنانير تصرف في كل شهر، وجعل لـه نـاظرًا وشـهودًا أوقفه عليهم وعلى ذريتهم».

كانت لابن عوف إذن مكانة كبيرة عند صلاح الدين، وكان يجله ويحترمه، ويقدره ويوقـره، وكان إذا اعترضته مشكلة من مشاكل الدين أو الدولة أرسل إليه يسـأله الـرأى والفتـوى، يؤكـد هذا قول ابن فرحون:

«وكان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب يعظم ابن عوف ويراسله»

وقد روى الصفدى في كتابه «نكت الهميان» قصة مراسلة من هـذه المراسـلات عنـد ترجمتـه للقاضى شرف الدين عبد الله بن أبى عصرون، فقد أضـر هـذا القـاضى آخـر عمـره أثنـاء توليـه القضاء، وثار الجدل حول جواز بقائه في منصبه بعد إصابته بالعمى، وكـان ابـن أبـى عصـرون نفسه حريصًا على أن يظل قاضيًا، فألف رسالة أيد فيها جواز أن يكـون القـاضى أعمـى، وهـو رأى تقول به القلة من الفقهاء وترفضه الكثرة، ويبدو أن صلاح الدين كان حريصًـا علـى إرضـاء ابن أبى عصرون وعدم المساس بشعوره فى شيخوخته فأرسل يستفتى ابن عوف فى الأمر، قـال الصفدى:

«وكتب السلطان صلاح الدين بخطه إلى القاضى الفاضل يقول فيـه: إن القـاضى قال: إن قضاء الأعمى جائز، فتجتمع بالشيخ أبى الطـاهر بـن عـوف السـكندرى، وتسأله عما ورد من الأحاديث فى قضاء الأعمى».

٩ - منشآت صلاح الدين في الإسكندرية: المدرسة الجامعة والبيمارستان ودار المغاربة:

وفى هذه الزيارة الثانية أنشأ صلاح الدين فى الإسكندرية مدرسـة جامعـة، - ولسـنا نعـرف للأسف شيئًا عن موقعها أو تاريخها - يدرس بها للطلبة الغرباء مختلف العلوم والفنون، وألحق بها مساكن للطلبة وحمامات يستحمون بها ومارستانا لعلاج من يمرض منهم.

أشار إلى هذه المدرسة وإلى المنشآت والإصلاحات الكثـيرة التـى قـام بـها صـلاح الديـن أثنـاء زيارته هذه للإسكندرية المقريزى فى كتابه الخطط - قال:

«ثم خرج إلى الإسكندرية، وسمع بها موطأ الأمام مالك على الفقيه أبى طاهر بن عوف، وأنشأ بها مارستانا ودارًا للمغاربة ومدرسة، وجدد الخليج ونقل فوهته».

وقد وصف هذه المدرسة الجامعة الرحالة المعروف ابـن جبـير عنـد زيارتـه للإسـكندرية بعـد قليل.. قال:

«ومن مناقب هـذا البلـد (الإسـكندرية) ومفـاخره العـائدة فـى الحقيقـة إلى سـلطانه المـدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد من الأقطار النائية، فيلقى كل واحد منـهم مسكنًا يأوى إليه، ومدرسًا يعلمه الفن الذى يريد تعلمه وإجراء يقوم بـه فـى جميـع أحوالـه.. واتسـع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتـاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مـرض منـهم، ووكـل بـهم أطبـاء يتفقـدون أحوالهـم، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشـيرون بـها مـن عـلاج وغـذاء، وقـد رتب أيضًا فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتـنزهون عـن الوصـول للمارسـتان المذكـور مـن الغرباء خاصة، وينهون إلى الأطباء أحوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم».

١٠ - صلاح الدين يبنى مسجدًا جامعًا جديدًا فى الإسكندرية:

وقد أمر صلاح الدين - اتباعًا لسياسته فى القضاء على المذهـب الشـيعى وعلـى آثـار الدولـة الشيعية المنتهية - ببناء مسجد جديد فى الإسكندرية، ونقل الخطبة إليـه بعـد أن كـانت تقام فى العصر الفاطمى فى أكبر مساجد المدينة فى ذلـك العصر وهـو مسـجد العطـارين (أو مسـجد الجيوشى)، وقد حاولنا التعرف على مكان هذا المسجد الهـام ولكننـا لم نسـتطع، لأن المراجـع التى ذكرته لم تشر إلى موقعه للأسف.

١١ - كثرة المساجد فى الإسكندرية فى أقوال الرحالة:

ولقد بهرت الإسكندرية الرحالة ابن جبير لكثرة ما بها من مساجد ولوفرة ما يصـرف عليـها وعلى القائمين بأمرها، قال:

«وهو (أى ثغر الإسكندرية) أكثر بلاد الله مساجد، حتى أن تقديـر النـاس لهـا يطفف، فمنهم المكثر والمقل، فالمكثر ينتهى فى تقديره إلى اثنى عشر ألف مسـجد، والمقل دون ذلك، لا ينضبط، فمنهم من يقول ثمانية آلاف، ومنـهم مـن يقـول غـير ذلك، وبالجملة فهى كثيرة جدًا، تكون منها الأربعة والخمسة فـى موضـع، وربمـا كانت مركبة، وكلها بأئمة مرتبين من قبل السلطان، فمنهم من له الخمسـة دنانـير مصرية فى الشهر، ومنهم من له فوق ذلك، ومنهم من له دونه، وهذه منقبة كبـيرة من مناقب السلطان».

والمبالغة واضحة فى الأرقام التى يوردها ابن جبير، ويبدو أن كثرة المسـاجد فـى المدينـة قـد أثارت الإعجاب فـى نفسـه ودفعتـه إلى هـذه المبالغـة، وإلا فـإن كاتبًـا معـاصرًا هـو محمـد بـن عبد الوهاب المعروف بابن خزيمة الذى زار الإسكندرية فـى سـنة ٥٦٠هـ (١١٦٤م) وأقـام بـها

نحو الأربعين سنة يقول عند وصفه المدينة: «وبها ٨٠٠ مسجد، منها ١٩٠ للخطبة، وبها ١٨٠ مدرسة لطلب العلم بها».

ويبدو أن كثرة المساجد بالمدينة كانت كثرة غير عادية بحيث تبهر كل زائر غريب، وتسترعي انتباهه، فهذا رحالة آخر زار المدينة في عهد الملك العادل أخي صلاح الدين - وهو أبو الحسن على بن أبي بكر الهروى قال في كتابه الإشارات إلى معرفة الزيارات: «وبها من المساجد والمعابد مالا رأيته بغيرها، وذكر لي ابن منقذ أن فيها اثني عشر ألف مسجد، فسألت القاضي الكاتب عن ذلك، قال:

«إن الملك العزيز عثمان كشف ذلك، فوجدوا بها عشرين ألف مسجد، وأنا فما عددتها، والله أعلم بصحة ذلك».

وإشارة ابن جبير والهروى هذه إلى المساجد وكثرتها تعطينا صورة واضحة لما كانت عليه المدينة من عمران في العصر الفاطمي السابق، لأن هذه الآلاف لم تبن كلها في أوائل عهد صلاح الدين، وإنما بنيت في العصور السابقة، وخاصة في العصر الفاطمي.

كما أن هذه الإشارة إلى المباني الفوقية - وهي الدور والمنازل - والمباني التحتية المعتنى بها - وهي الآبار والصهاريج - يؤكد صحتها ما يتردد من أقوال مشابهة في كتب الرحالة والجغرافيين العرب الآخرين عند وصفهم لمدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي.

١٢ - رعاية صلاح الدين للوافدين من المغاربة:

والصلة بين الإسكندرية والمغرب صلة وثيقة وقديمة، فهي أول مدينة مصرية ينزل بها الحجاج المغاربة - وخاصة الوافدون منهم عن طريق البر - في طريقهم إلى الأراضي المقدسة لأداء الفريضة، ولهذا يسميها الجغرافيون العرب: «باب المغرب»، وقد ذكر ابن جبير عند كلامه عن مدينة الاسكندرية أن السلطان صلاح الدين كان قد أمر بأن يصرف لكل واحد من أبناء السبيل الوافدين من المغرب خبزتين في اليوم، وأوقف أوقافًا خاصة للصرف من إيرادها على هذا المقصد، واعتبر ابن جبير هذا العمل مأثرة من مآثر صلاح الدين.. قال:

«ومن أشرف هذه المقاصد أيضاً أن السلطان عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان في كل يوم بالغًا ما بلغوا، ونصب لتفريق ذلك كل يوم إنسانًا أمينًا من قبله فقد ينتهي في اليوم إلى ألفي خبزة أو أزيد بحسب القلة والكثرة، هكذا دائمًا، ولهذا كله أوقاف من قبله حاشى ما عينه من زكاة العين لذلك.. إلخ».

obeikandl.com

الفصل الثانى

تجارة الإسكندرية الداخلية والخارجية

فى عصر صلاح الدين

وكان لهذه العناية الملحوظة التى أسبغها صلاح الدين على ثغر الإسكندرية أثرها البالغ فى تقدم المدينة ورفاهية أهلها وازدياد عمرانها، ونشاط تجارتها الداخلية والخارجية، فقد زارها الرحالة الأندلسى ابن جبير فى أواخر سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢م) ووصفها بقوله:

«إنا ما شاهدنا أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى، ولا أعتق ولا أحفل منه، وأسواقه فى نهاية من الاحتفال أيضًا ومن العجب فى وضعه أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها وأعتق وامتن، لأن الماء من النيل يخترق ديارها وأزقتها تحت الأرض، فتتصل الآبار بعضها ببعض، ويمد بعضها بعضًا.. ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها المنار الذى قد وضعه الله عز وجل بين يدى من سخر لذلك آية للمتوسمين وهداية للمسافرين، لولاه ما اهتدوا فى البحر إلى بر الإسكندرية، يظهر على أزيد من سبعين ميلاً، ومبناه فى غاية العتاقة والوثاقة طولا وعرضًا يزاحم الجو سموا وارتفاعًا، يقصر عنه الوصف، وينحسر دونه الطرف، الخبر عنه يضيق، والمشاهدة له تتسع، ذرعنا أحد جوانبه الأربعة فألفينا فيه نيفًا وخمسين باعًا، ويذكر أن فى طوله أزيد من مائة وخمسين قامة، وأما داخله فمرأى هائل: اتساع معارج ومداخل، وكثرة مساكن، حتى أن المتصرف فيها والوالج فى مسالكها ربما ضل، وبالجملة لا يحصلها القول، والله لا يخليه من دعوة الإسلام ويبقيه، وفى أعلاه مسجد موصوف بالبركة يتبرك الناس بالصلاة فيه، طلعنا إليه يوم الخميس الخامس لذى الحجة المؤرخ، وصلينا فى المسجد المبارك المذكور، وشاهدنا من شأن مبناه عجبًا لا يستوفيه وصف واصف».

كانت منارة الإسكندرية إذن هى أهم شىء لفت نظر ابن جبير ونال عنايته حتى أنه جاس خلالها، وقاس أبعادها، ووصف مبناها، وارتقى مدارجها، وتبرك بالصلاة فى مسجدها، وما هذا إلا أنها هداية للمسافرين والتجار، ولولاها ما اهتدوا فى البحر إلى بر الإسكندرية فإن، أنوارها تظهر على أزيد من سبعين ميلاً.

وقد زار الإسكندرية الرحالة اليهودى «بنيامين التطيلى» فى السنوات الأولى من حكم صلاح الدين - أى قبل زيارة ابن جبير لها بنحو ١٧ سنة - ووصف المدينة وشوارعها ومبانيها وصفًا دقيقًا لا يختلف كثيرًا عن وصف ابن جبير لها، وإن كان هذا الوصف يؤكد أن المدينة كانت لا تزال تحافظ على تخطيطها العام الذى عرفت به من أقدم العصور، فقد قال:

«ومدينة الإسكندرية مشيدة على طبقات معقودة تحتها الكهوف والمغاور، وشوارعها مستقيمة لا يحد البصر آخرها لطولها، فالشارع الممتد من باب رشيد إلى باب البحر ينوف على الميل طولا، وفى مرساها رصيف فى البحر إلى مسافة ميل أيضًا».

ثم عنى عناية خاصة بوصف منار الإسكندرية، وأتى على طرف من تاريخه ختمه بقوله:

«ولا يزال منار الإسكندرية يهدى السفاين الغادية والرائحة، ويشاهد عن بعد مائة ميل نهارًا، وفى الليل ينبعث منه نور يهتدى به الملاحون».

وأهم ما فى وصف بنيامين الثبت الدقيق المفصل الذى أحصى فيه أسماء الممالك والأقطار الأجنبية التى كانت تتبادل التجارة مع الإسكندرية فى ذلك الوقت، ومن هذا الثبت نعرف أن أنواع التجارة وألوانها المختلفة كانت تتدفق إلى الإسكندرية من كل بلدان أوروبا المسيحية، ومن كل بلدان الشرق الإسلامية وغير الإسلامية، فمن بلدان أوروبا:

البندقية، ولمبارديا، وطسقانيا، وصقلية، ورومانيا، وهنغاريا، وبلغاريا، وكرواتيا، وروسيا، وألمانيا، وسكسونيا، والدانمراك، ونرويج، وهولندا، وسكوتلندا، وإنجلترا، وويلز، وفلندرز، ونورماندیا، وفرنسا وأنجو، وبرجنديا، وبروفنس، وجنوة، وبيزاء وأرجون... الخ.

ومن بلدان الشرق: بلاد المغرب، وجزيرة العرب، والهند، والحبشة واليمن، والعراق، والشام، وتركيا.

ويبدو من دقة هذا الثبت ووفرة أسماء البلدان التى أوردها أن الرحالة بنيامين تعرف على بعض تجار الإسكندرية - وخاصة اليهود منهم - وربابنة السفن بها. ومنهم استمد هذه المعلومات القيمة.

والجديد فى وصفة إشارته إلى نوع جديد من المنشآت عرفته الإسكندرية والثغور المصرية الأخرى فى العصور الإسلامية، وهو الفنادق (من الكلمة «اليونانية Pandokeion » التى كان يأوى إليها تجار الممالك والدول الأوربية المختلفة، قال بنيامين:

«وتأتيها من الهند التوابل والعطور بأنواعها فيشتريها تجار النصارى، ولتجار كل أمة فندقهم الخاص بهم، وهم فى ضجة وجلبة يبيعون ويشترون».

وهو وإن لم يشر فى وصفه إلى مكان هذه الفنادق أو يصفها إلا أننا نستطيع أن نرجح أنها كانت تقوم داخل المدينة بالقرب من باب البحر الذى كان يطل على الميناء الشرقى مباشرة – مرسى سفنهم –، أى حيث يقوم حى المنشية وشارع الميدان الحاليان.

والفنادق كانت مبان ضخمة تتكون من عدة طوابق، وكان يخصص لتجار كل دولة فندق أو أكثر، وذكر «هايد» أن تجار البنادقة كان لهم فى الإسكندرية فندقان، وأشارت المراجع كذلك إلى وجود فندق لتجار الجاليات الأوربية الأخرى كالكتلان، والبيزانيين، والفلورنتيين (أهالى فلورنسا) والفرنسيين، وكان التجار يسكنون الطوابق العليا، أما الطابق الأسفل فكان يضم الحوانيت التى تعرض فيها البضائع، وتفتح هذه الحوانيت من الداخل على فناء تفرغ فيه البضائع وتخزن، وكان يلحق بالفندق فى العادة حمامات خاصة وفرن وكنيسة توفيرًا لراحة التجار الأجانب وتمكينًا لهم من أداء شعائرهم الدينية.

وتخصيص بنيامين توابل الهند وعطورها بالذكر يدل دلالة واضحة على أن هذه الأصناف كانت أهم تجارات الإسكندرية فى ذلك العصر. يؤيد هذا نصوص المؤرخين المختلفين والمعاهدات التجارية التى كانت تعقد بين سلاطين الأيوبيين والمماليك وبين الجمهوريات الايطالية والدول الأوروبية.

ويؤيد هذا أيضًا أن أحد أبواب الإسكندرية فى العصر العربى – وهو باب سدرة – كان يسمى أيضًا باب البهار، لأن بهار الهند والشرق الواصل إلى القاهرة عبر البحر الأحمر كان يحمل منها فى سفن تسير فى النيل، ثم فى خليج الاسكندرية، حيث تفرغه خارج الإسكندرية عند هذا الباب، وفى الأوقات التى كان يتعطل فيها الخليج ويتعذر على السفن المسير فيه كانت تحمل هذا البهار قوافل من الجمال تأتى إلى الإسكندرية عن طريق البرى وتدخلها من (باب سدرة) أو باب البهار، لا من باب رشيد.

وكان بنيامين يعنى بإحصاء عدد اليهود المقيمين فى كل مدينة يزورها فقد ذكر أنه كان بالإسكندرية منهم وقت زيارته لها ٣٠٠٠ يهودى، وليس هذا بالغريب فى بلد كان له هذا النشاط والمدن التجارية فى كل عصر وأوان.

هذا الوصف الذى وصف به بنيامين مدينة الإسكندرية يلقى بعض الضوء على تاريخ التجارة الخارجية للمدينة فى عهد صلاح الدين، وفى كتاب «قوانين الدواوين» لابن مماتى نص آخر

يلقى بعض الضوء على تاريخ الحركة التجارية الداخلية بين الإسكندرية ومدن القطر الأخرى، وخاصة العاصمة القاهرة، فقد قال ابن مماتى فى تقويمه الاقتصادى:

«وفى مسرى جريان النيل بخليج الإسكندرية، وتسفير المراكب إليه بالشب، والغلال، والكتان، والبهار، والسكر، وغير ذلك من الأصناف، وفيه يحمل من ثغر الإسكندرية المحروس إلى الباب العزيز من الأخشاب والحديد وغير ذلك من الأصناف برسم عمارة المراكب».

فمؤرخنا ابن مماتى قد بين هنا أن حركة التجارة بين الإسكندرية وداخل القطر كانت لا تنشط إلا وقت الفيضان عندما يرتفع الماء فى خليج الإسكندرية ويسهل على المراكب السير فيه، وهو قد حدد أيضًا الأصناف التى ترسل إلى الإسكندرية لتصدر منها إلى الخارج، وبعضها من إنتاج مصر كالشب والكتان والغلال والسكر، وبعضها مما يرد إلى مصر من الشرق وهو البهار، كما حدد الأصناف التى ترسل من الإسكندرية إلى العاصمة – وهى مما يرد من أوروبا – وأهمها الخشب والحديد لعمارة سفن الأسطولين الحربى والتجارى فى دار صناعة السفن بالفسطاط أو بالمقس ميناء القاهرة.

الفصل الثالث

الإسكندرية فى عهود خلفاء صلاح الدين من ملوك الدولة الأيوبية

(أ) فى عهد العزيز عثمان:

هذه هى صورة تخطيطية لما كانت عليه الإسكندرية حربيًا وعلميًا وعمرانيًا وتجاريًا فى عهد صلاح الدين، وهى لا تكاد تختلف كثيرًا عن صورتها فى عهد خلفائه من ملوك بنى أيوب، فقد كان معظمهم يوالونها بعنايتهم، والمراجع تذكر أن الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين قد زار الإسكندرية مرتين للإشراف على شئونها: فى ذى الحجة سنة ٥٩٢ هـ (أكتوبر ١١٩٦م)، وفى ذى الحجة ٥٩٥ هـ (سبتمبر ١٢٠٠م) وذلك على الرغم من قصر مدة حكمة، ولا عجب فى هذا، فإن العزيز كان يحمل فى نفسه ولا شك أجمل الذكريات عن مدينة الإسكندرية منذ زارها فى صباه الباكر مع والده صلاح الدين، ومنذ تردد معه على مجالس العلم الحافلة للاستماع على الحافظ السلفى والفقيه أبى الطاهر بن عوف، حتى لقد عده المؤرخون من تلاميذهما، واعتبروا هذه التلمذة إحدى فضائله، قال ابن تغرى بردى فى ترجمته له:

«وكان (العزيز) ملكًا مباركًا، كثير الخير، واسع الكرم، محسنًا إلى الناس، معتقدًا فى أرباب الخير والصلاح، سمع بالإسكندرية الحديث من الحافظ السلفى والفقيه أبى طاهر بن عوف الزهرى».

وفى سنة ٥٩٢ هـ حدثت فى مصر مجاعة خطيرة شملت المدن الكبرى بما فيها الإسكندرية، وفى هذه السنة - كما يقول المقريزى.

«كثرت الأموات أيضًا بالإسكندرية وتزايد وجود الطرحى بها فى الطرقات».

وأغلب الظن أن زيارة الملك العزيز الأولى للإسكندرية فى هذه السنة كانت للإشراف على المدينة ورعاية أهليها ومعالجة آثار المجاعة.

ويبدو أن الإسكندرية كانت تعتبر فى تلك الأوقات منطقة طيبة لممارسة رياضة الصيد، ولهذا لم يقصر الملك العزيز زيارته الثانية للإسكندرية فى سنة ٥٩٥ هـ على كشف أحوال المدينة ورعاية شئونها فحسب، وإنما قضى وقتًا منها فى الصيد، قال المقريزى فى كتابه السلوك:

«والعزيز صاحب مصر قد سار إلى الإسكندرية فى آخر ذى الحجة فتصيد إلى سابع المحرم».

(ب) فى عهد الملك العادل أبى بكر:

وكذلك زار الملك العادل أبو بكر (أخو صلاح الدين) بعد توليته عرش مصر مدينة الإسكندرية ثلاث مرات لكشف أحوالها وترتيب أمورها، وكان ذلك فى السنوات ٦٠٨ هـ (١٢١١م) و٦١٢ هـ (١٢١٥م) و ٦١٣ هـ (١٢١٦م).

أشار المقريزى فى كتابه «السلوك» إلى الزيارة الأولى، فقال إن العادل زار الإسكندرية فى سنة ٦٠٨ (١٢١١) «لكشف أحوالها»، وروى هذا المؤرخ كذلك فى كتابه الخطط أن العادل زار الإسكندرية فى سنة ٦١٢ (١٢١٥)، ففى تلك السنة «اجتمع بالإسكندرية ثلاثة آلاف من تجار الفرنج وقدمت بطسة (سفينة حربية) إلى الميناء فيها من ملوك الفرنج ملكان، فهموا أن يثوروا ويقتلوا أهل البلد ويملكوها، فتوجه الملك العادل أبو بكر بن أيوب إليها، وقبض على التجار المذكورين وعلى من بالبطسة، واستصفى أموالهم وسجنهم، وسجن الملكين، وجرت خطوب حتى أطلق السلطان نساءهم وعاد إلى القاهرة».

ولهذا النص - على قصره - أهمية خاصة لأنه يتضمن إحصاء نادرًا عن عدد التجار الفرنج بمدينة الإسكندرية فى العصر الأيوبى.

ويبدو أن هذه الفتنة قد دفعت العادل إلى زيادة العناية بحصون المدينة وأسوارها فقد زار المدينة فى السنة التالية ليشرف على شئونها وترتيب أمورها، روى خبر هذه الزيارة الثالثة المقريزى فى السلوك.. قال:

«وفيها (٦١٣هـ) سار الملك العادل من القاهرة إلى الإسكندرية فرتب أمورها وعاد».

ولكن هذه الإجراءات الحاسمة التى اتخذها العادل حيال تجار الفرنج كان لها أثرها فى تجارة الثغر، فقد ذكر أبو شامة فى كتابه «الذيل على الروضتين» أن تجار الفرنج امتنعوا فى سنة ٦١٣ «من الوصول إلى الاسكندرية، وصار صولهم إلى عكا بالبضائع وبيعهم بها، فحصل لملك عكا جملة وافرة».

(جـ) فى عهد الملك الكامل محمد:

وفى سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠م) أو ٦٠٩ هـ (١٢١٢م) زار الملك الكامل محمد - أثناء نيابته عن أبيه العادل فى حكم مصر - مدينة الاسكندرية، وفيها تقابل مع أخيه الملك المعظم عيسى عندما خرج من دمشق قاصدًا زيارته، أشار إلى هذه الزيارة سبط ابن الجوزى قال:

«وكان (المعظم) قد توجه إلى أخيه الكامل فى سنة سبع أو تسع وستمائة، والكامل فى الاسكندرية، فركب (المعظم) فرسًا واجدًا، ووصل من دمشق إلى الإسكندرية فى ثمانية أيام، فخرج الكامل فالتقاه، وترجلا واعتنقا».

وكذلك أشار المقريزى إلى زيارة ثانية زارها الملك الكامل لمدينة الإسكندرية فى سنة ٦٢٨هـ - أى بعد وفاة والده العادل واستقلاله هو بحكم مصر - قال: «وفيها سار الملك الكامل إلى الإسكندرية»، ولكنه لم يذكر شيئًا عن أسباب هذه الزيارة أو عما فعله الكامل خلالها.

(د) فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب:

وليست هناك إشارة فى المرجع إلى أى زيارة قام بها الملك الصالح نجم الدين أيوب لمدينة الإسكندرية، ولم يكن هذا خروجًا على المألوف من سياسة ملوك بنى أيوب نحو مدينة الإسكندرية، وإنما كان هذا لانشغال الصالح طول مدة حكمه بمقاتلة الفرنج فى الشام أولا وعند نزولهم بدمياط ثانيًا، ومع ذلك فقد كانت عنايته بالإسكندرية كبيرة، ففى السنة التالية لتوليه عرش مصر، وهى سنة ٦٣٨هـ أمر بنقل الأمير بدر الدين بن باخل من ولاية مصر وولاه مدينة الإسكندرية، وقد عرف ابن باخل بالكفاية والتدبير والحزم.

(هـ) أمراء البيت الأيوبى والإسكندرية:

وكان لأمراء البيت الأيوبى - من غير الملوك - صلات قوية بمدينة الاسكندرية، فقد وليها المعظم توار نشاه، أخو صلاح الدين الأكبر مدة يسيرة قبل وفاته، وبها توفى ودفن، قال ابن أبى طى:

«كان السلطان (صلاح الدين) قد أنفذ أخاه شمس الدولة (توران شاه) إلى الإسكندرية وجعل إليه ولايتها، فلما حصل بها لم توافقه، وكان يعتاده القولنج فهلك به ودفن بقصر الإسكندرية».

وقال صاحب النجوم الزاهرة إن تورانشاه عندما أتى إلى الإسكندرية «أقام بها معتكفًا على اللهو»، وأن أخته شقيقته ست الشام أمرت بنقل جثته بعد موته إلى دمشق حيث دفنت فى تربتها التى أنشاتها هناك.

وذكر المقريزى فى السلوك أن الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه - ابن أخى صلاح الدين - خرج فى سنة ٥٨١هـ - وكان إذ ذاك ينوب عن عمه فى حكم مصر - إلى الإسكندرية لكشف أحوالها، ويبدو أن السبب الذى دفعه إلى هذه الزيارة هو إخماد فتنة قام بها أهالى المدينة، فقد قال المقريزى فى حوادث نفس السنة:

«وفى يوم الثلاثاء سابع ربيع الأول كانت بالإسكندرية فتنة بين العوام، ونهبوا فيها المراكب الرومية. فقبض على عدة منهم ومثل بهم».

obeikandl.com

الفصل الرابع

الرحالة والمؤرخون

الذين زاروا الإسكندرية فى العصر الأيوبى

٢،١ - بنيامين التطيلى وابن جبير الأندلسى:

وقد زار الإسكندرية فى العصر الأيوبى عدد كبير من الرحالة والمؤرخين أشرنا من قبل إلى اثنين منهم هما: بنيامين التطيلى اليهودى، وابن جبير الأندلسى، وقد استشهدنا بأوصافهما للتعرف على أحوال المدينة العمرانية والاقتصادية، وقد أضاف ابن جبير إلى أوصافه السابقة وصفًا آخر طريفًا لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية فى المدينة، فقد شاهد بها يوم وصوله إليها «مجتمعًا من الناس عظيما برزوا لمعاينة أسرى من الروم أدخلوا إلى البلد راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنابها، وحولهم الطبول والأبواق»، وكان هؤلاء بعض الأسرى الذين أسرتهم الأساطيل المصرية التى أرسلت من الإسكندرية والقاهرة لمطاردة سفن أرناط صاحب الكرك التى سبق أن خرجت من أيلة تريد الاستيلاء على المدينتين المقدستين مكة والمدينة، يقول ابن جبير:

«فدفع الله عاديتهم بمراكب عمرت من مصر والإسكندرية دخل فيها الحاجب المعروف بلؤلؤ مع أنجاد من المغاربة البحريين فلحقوا العدو وهو قد قارب النجاة بنفسه فأخذوا عن آخرهم.. وقتلوا وأسروا، وفرق من الأسارى على البلد ليقتلوا بها..».

٣ - المؤرخ أبو شامة:

وفى سنة ٦٢٨هـ - فى عهد الملك الكامل - زار الإسكندرية المؤرخ الدمشقى أبو شامة صاحب الروضتين والذيل عليه، وبقى فيها إلى سنة ٦٢٩هـ، ولم يقدم لنا وصفًا للمدينة كما رآها، وإنما ذكر أنه زار قبر الحافظ السلفى بها.. قال:

«وقد زرت قبره بها داخل الباب الأخضر» وذكر فى موضع آخر أنه قابل الشيخ محمد القبارى أحد متصوفة المدينة وزهادها.. قال:

«كنت اجتمعت به فى آخر سنة ٦٢٨هـ مع جماعة، صادفناه وهو يسقى فى جرار ماء من الخليج على حمار يسقى به غيطه، وكان الماء فى الخليج حينئذ

قليلا فأجلسنا إلى أن تم عمله، ثم قدم لنا من ثمر غيطه، وكذا كانت عادته مع كل من يزوره من الملوك وغيرهم».

٤ - الرحالة أبو الحسن على بن أبى بكر الهروى:

وفى أواخر القرن السادس الهجرى زار الإسكندرية الرحالة أبو الحسن على بن أبى بكر الهروى (المتوفى سنة ٦١١هـ) صاحب كتاب «الإشارات إلى معرفة الزيارات» ، ووصف المدينة فى كتابه هذا، وعنى أكثر ما عنى بوصف الآثار القديمة والقبور والمساجد التى يقصدها الناس للزيارة.

ومن الآثار القديمة التى شاهدها عمود السوارى ووصفه بأنه «مصقول صقال الفصوص، والعمد حوله، ويقال هذا الرواق الذى بنته اليونان.. وتحته قاعدة مربعة من الحجر المانع قطعة واحدة».

ووصف المنارة بقوله:

«وإنما ذكروا منارة الإسكندرية من العجائب لما كان بها المرآة التى ذكروا أن المراكب إذا أقلعت من مسيرة أيام تظهر صورها فيها فيستعدوا للقائها، وقيل إنها كانت تحرق المراكب، وهذا يمكن عمله، فإن المرآة إذا سامتت شعاع الشمس أحرقت لاسيما ويعضدها البحر، فإن شعاع الشمس من صقال المرآة وضوء الماء ولمعانه تحرق ، ولا شك فيه، قيل كانت المرآة ستين ذراعًا، وطول المنارة ثلاثمائة ذراع».

وأشار الهروى إلى دار كانت بالمدينة أثناء زيارته لها اسمها دار الاسكندر فقد قال: «وبها دار الاسكندر» ولم يحدد موضعها للأسف، ويبدو أن أهالى المدينة كانوا يطلقون على أحد المبانى الأثرية القديمة هذا الاسم وينسبونها إلى الاسكندر، ولا يمكن أن يتجه الذهن إلى أن المقصود بهذه الدار قبر الاسكندر، فإن الهروى أشار فى موضع آخر إلى أن بعض الروايات إلى عهده تقول بأن قبر الاسكندر كان داخل المنار، قال: «ويقال إن قبر الإسكندر بالمنارة مع ارسطاليس ، والله أعلم بذلك».

وأشار الهروى إلى المسجد المعروف الآن فى الإسكندرية بمسجد النبى دانيال، وإنما ذكره على أنه قبر لا مسجد، وقال إنه قبر أرميا النبى، فقد قال: «وبها قبر أرميا النبى عليه السلام بالديماس» والمقصود بالديماس كوم الديماس وهو المعروف بكوم الدكة حاليًا، فالهروى - فيما نعلم - أول مؤلف ورحالة عربى ذكر هذا القبر، ولهذا الوصف المختصر الذى أورده أهمية

كبيرة، لأنه يدل على أنه لم يكن حتى أواخر القرن السادس بكوم الديماس مسجد يسمى مسجد النبى دانيال، وإنما كان به قبر يعرف بقبر أرميا النبى، ومعنى هذا أن المسجد الذى بنى فوق هذا القبر بنى بعد القرن السادس الهجرى قطعاً ، ونسب نسبة خاطئة إلى النبى دانيال، وهذا النص كذلك ينفى الشائعات التى كانت تتداول أخيرًا على أن هذا القبر هو قبر الاسكندر، إذ لو كان هذا شائعًا لدى أهالى الإسكندرية عند زيارة الهروى للمدينة، ولو على سبيل الأسطورة، لنقله عنهم، ولما أشار إلى الرواية الأخرى التى تقول باحتمال أن يكون قبر الإسكندر داخل المنارة.

وأشار الهروى إلى الخليج وانسيابه فى شوارع المدينة وكثرة الصهاريج فى دورها فقال:

«ومن عجائب الخليج إذا زاد النيل تبقى هذه المدينة كأنها قارورة قد وضعت على الماء، ولا يبقى فيها دار إلا ويدخل (إليها) الماء الذى يحتاج إليه من زيادة النيل، والطبقة التى تحت المدينة تمشى فيها كما تمشى فيها فى الشوارع، وهى ثلاث طبقات».

وقد بهر الهروى لكثرة ما فى المدينة من مساجد فقال: «وبها من المساجد والمعابد ما لا رأيته بغيرها» وذكر أن عدد هذه المساجد كانت على عهده فى بعض الأقوال اثنا عشر ألف مسجد، وفى أقوال أخرى عشرون ألف.

والجديد فى وصفه أنه أمدنا بأسماء كثير من هذه المساجد التى لم يبق منها حتى الآن إلا المسجد القديم وهو المعروف بالجامع الغربى.. قال:

«وبها مسجد المواريث يزار، ومسجد سارية، والجامع القديم، ذكروا أن الجامع عمارة الصحابة رضى الله عنهم».

وقال:

«وبها مسجد التوبة والرحمة.. ومسجد النحات عنده شهداء لا تعرف أسماؤهم».

وذكر الهروى كذلك معلمين هامين من معالم المدينة، هما الباب الأخضر ومقبرة وعلة، قال:

«وبها الباب الأخضر يزار» ثم قال: «بها جبانة يقال جبانة وعلة».

٥ - الرحالة عبد اللطيف البغدادى:

وقد زار الرحالة الطيب عبد اللطيف البغدادى مصر مرتين، الأولى فى عهد صلاح الدين، والثانية فى أواخر القرن السادس الهجرى فى عهد العزيز عثمان والعادل أبى بكر، وكان يلقى

دروسه فى الجامع الأزهر بالقاهرة، وقد طوف فى مدن مصر المختلفة ومن بينها الإسكندرية، وألف كتابًا صغيرًا ضمنه مشاهداته فى مصر، وسماه «الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر»، وما قاله عن الإسكندرية قليل، منه ما سبق أن أشرنا إليه من نقده لقراجا والى الإسكندرية على عهد صلاح الدين لتحطيمه السوارى التى كانت تحيط بعمود السوارى وإلقائها فى الميناء الشرقى لحماية أسوار المدينة وتعويق سفن الأعداء.

وقد ضمن كتابه وصفًا دقيقًا آخر لعمود السوارى والمنارة، وذكر فى الفصل الذى عقده للكلام عن نباتات مصر أنه يوجد بالإسكندرية صنف من التفاح «ببستان واحد يسمى بستان القطعة، وهو صغار جدًا قانى الحمرة وأما رائحته فتفوق الوصف وتعلو المسك، وهو قليل جدًا».

وقد حضر البغدادى المجاعة التى أصابت مصر فى سنة ٥٩٥هـ واستمرت إلى ٥٩٧هـ وصحبها وباء خطير قضى على حياة ألوف من السكان، واضطر الأهالى تحت وطأة الجوع إلى أكل بعضهم البعض الآخر، وقد أورد البغدادى فى كتابه وصفًا تفصيليًا لهذه الأحداث، فمما قاله عن أثر المجاعة فى مدينة الإسكندرية:

«وسمعنا من الثقات عن الإسكندرية أن الإمام صلى يوم الجمعة على سبعمائة جنازة، وأن تركة واحدة انتقلت فى مدة شهر إلى أربعة عشر وارثًا، وأن طائفة كبيرة من أهلها تزيد على عشرين ألفًا انتقلوا إلى برقة وأعمالها فعمروها وقطنوها».

٦ - المؤرخ عثمان بن إبراهيم النابلسى:

ومن المؤرخين المصريين المعاصرين للدولة الأيوبية عثمان بن إبراهيم النابلسى، وقد ولى هذا العالم رئاسة الدواوين فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب، وله مؤلفان قيمان، أحدهما عن تاريخ مدينة الفيوم ووصفها على أيامه، والثانى عنوانه «كتاب لمع القوانين المضية فى دواوين الديار المصرية».

وهو من أهم المراجع لدراسة النظم الإدارية فى مصر فى العصر الأيوبى، وفى أحد أبوابه يتحدث المؤلف عن عيوب الجهاز الإدارى فى عصره، ومن المآخذ الهامة التى ذكرها إهمال الموظفين لخليج الإسكندرية، وقال إن الخليج:

«كان مبلطًا بأكدان الصلب، وكان ماء النيل يدخله ثمانية أشهر، فصار الآن لا تدخله المراكب إلا مُدَيْدَة يسيرة، وينقطع الوصول إليه من النيل لجفاف فوهته، وكان يصل ماء النيل إلى الثغر إذا دخل النيل فى الذراع الثانى عشر، فصار اليوم لا يدخل فوهته إلا باستكمال ثلاثة عشر ذراعًا، ثم لم يكن له سد يمنعه من الوصول، فأحدث سد عند الكريون، ثم دونه مما يليها

سد ثان يقيم الماء معوقًا به مدة، ثم سد ثالث يعوق الماء عن الثغر مدة أخرى، وكان الماء يخرج من آخر الخليج فى برابخ رصاص قديمًا وضعت وضعًا حكميًا، يجرف الماء ما فى قعره من الطين ويمنعه من الرسوب، ويخرج من تلك البرابخ، ويجرى إلى البحر الملح فأهملت حتى استدت، وصار على ما بلغنى الآن قدام البرابخ رملة عظيمة، بينها وبين البحر الملح».

ثم عقب النابلسى على هذه الحالة السيئة التى وصل إليها الخليج بقوله:

«فلو فتحت هذه البرابخ وفتح طريق الماء حتى يخرج منها ويرمى فى البحر الملح ما احتاج الخليج كل سنة إلى عشر ما يحتاجه بدون ذلك».

وأشار النابلسى بعد ذلك إلى تفكير الملك العادل فى إصلاح حال الخليج وإلى محاولة أخرى حاولها الملك الكامل فى هذا السبيل.. قال:

«وكان قد قيل للشهيد الملك العادل - قدس الله روحه - عن فتح موضع يعرف بالنقيدى، فقال له أرباب الخبرة: يخشى أن تغرم فيه جملة ولا يعلم هل يحصل به نفع أم لا، ونشغل عن الاهتمام بالفوهة الأصلية، فتركه، واهتم المولى الشهيد الملك الكامل - قدس الله روحه - بالفوهة، وغرق أمامها مراكب، وانصلحت مدة».

٧ - المؤرخ سبط ابن الجوزى:

وهكذا ظلت الإسكندرية - نتيجة لعناية ملوك بنى أيوب الدائبة بها - تنمو وتزدهر عمرانيًا وعلميًا وتجاريًا وحربيًا، فيما عدا سنوات المجاعة والوباء القليلة أيام العادل، وسرعان ما استعادت المدينة نشاطها العلمى والعمرانى بعد ذلك بقليل، فقد زارها الواعظ والمؤرخ الكبير سبط ابن الجوزى فى سنة ٦٤١هـ فى عهد الصالح نجم الدين أيوب ووصفها بقوله:

«قدمت الإسكندرية فوجدتها كما قال تعالى: ﴿ذات قرار ومعين﴾[1]، مغمورة بالعلماء معمورة بالأولياء، كالشيخ محمد القبارى، والشاطبى، وابن أبى شامة، ووجدتها كما قال القيسرانى فى وصف دمشق:

أرض تحل الأمانى فى أماكنها ... بحيث تجتمع الدنيا وتفترق

إذا شدا الطير فى أغصانها وقفت ... على حدائقها الأسماع والحدق»

وقد روى خبر هذه الزيارة ابن تغرى بردى فى كتابه «النجوم الزاهرة» وعقب عليه بقوله:

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٥٠.

«وأين قول أبى المظفر من قول مجير الدين بن تميم فى وصف الإسكندرية:

ما زرت فيها جانبـًا إلا رأت   عيناى فيهـا جنة وحـريرًا
أرض تحل الأمانى فى أماكنها   بحيث تجتمع الدنيا وتفترق»

وقد تردد سبط ابن الجوزى على مساجد المدينة ومدارسها، وخالط علمائها، وحضر مجالسهم وندواتهم، ورحبوا به ترحيبًا كبيرًا كما رحب به أهالى الإسكندرية، فقد عرف عنه أنه واعظ مؤثر يخلب ألباب سامعيه بمواعظه، فطلب إليه سكان المدينة أن يعقد لهم بعض مجالس للوعظ، يقول سبط ابن الجوزى».

«وسألونى الجلوس، فجلست بها مجلسين، فتاب فيها نحو من ألفين».

وأعلن بعد المجلسين عزمه على ترك المدينة والرحيل إلى القاهرة، فقام واحد من أهالى المدينة وأنشد بعض أبيات من الشعر يرجوه فيها إطالة مدة إقامته.. قال: «فلما عزمت على العود إلى القاهرة قام بعض أفاضلها فأنشد يقول:

ذكرتم فراقًا، فاستهلت مدامعى   وزاد لهيب النار بين ضلوعى
وأصبحت ميتا من سماع فراقكم،   أود بأنى لم أكن بسميع
فيا أهل هذا الثغر ترضون غيبة   لشمس علوم آنست بطلوع
قفى شمسنا قبل الفراق هنيهة،   فلسنا على علم بوقت رجوع
لقد وقفت شمس السماء ليوسف،   وما ذاك من أفعالها بشنيع
فنحن ضيوف، والقراء ثلاثة،   وجودك يا مولى الأنام شفيعى

يقول سبط ابن الجوزى:

«فكان البيت الأخير هو الباعث إلى أن عززت لهم بمجلس ثالث، ولم أقدر أن أسافر عنهم إلا ليلا، لأنهم وجدو بى كوجد مجنون بليلى».

obeikandi.com